



ما إن تهدأ الأوضاع في مصر حتى تنفجر في العراق.

وما إن تستقر الأمور في اليمن حتى تزداد الثورة في سوريا عنفاً ودموية.

ولا يطلع فجر على العالم إلا وتنتاب هذا البلد العربي أو ذاك ثورة أو انتفاضة أو تفجير أو أزمة سياسية حادة.

وها هو الربع العربي يدخل في عامه الثالث حاملاً مشاكل واضطرابات جديدة لا تقل خطورة عن تلك التي كانت معظم الدول العربية تعانيها، قبل طلوع شمسه؟!

صحيح أن العالم بأسره والبشرية كلها غارقة في أزمات ومشاكل اقتصادية واجتماعية وبيئية، ولكن العالمين العربي والإسلامي يتميزان بإضافة المحن السياسية إليها، وباعتماد العنف والإرهاب وسفك الدماء خطاباً.

لقد استقلت الشعوب العربية والإسلامية منذ أكثر من نصف قرن – وبعضاها قبل ذلك – ومرت بكل عوارض المرحلة الانتقالية التي مررت بها شعوب أخرى بعد استقلالها، من انقلابات وثورات وحروب.

وتحكمتها أنظمة سياسية وأيديولوجيات مختلفة، يمينية ويسارية، وطنية وقومية، دينية واشتراكية. ولكنها، في معظمها، لم تصل إلى شاطئ الاستقرار السياسي والعدالة الاجتماعية، بل اقتربن الاستقرار بالديكتاتورية، والعدالة الاجتماعية (إلى حد ما) بكتب الحريات. وإلا لما كان هذا «الربيع العربي» الذي صفق له العالم.

عقول عربية وغربية شغلتها هذه الظواهر السياسية العنفية والدموية، التي لم تتوقف منذ نصف قرن وأكثر في العالمين العربي والإسلامي.

وكثيرة هي التحليلات والخلاصات التي توصل إليها السياسيون والخبراء والمفكرون من عرب وأجانب، وتركزت حول ثلاثة:

- 1) وجود مؤامرة دولية على العرب والمسلمين تمنعهم من التوحد وتبدد ثرواتهم وطاقاتهم وتدفعهم إلى التقاتل.
- 2) غياب الديمقراطية والحرية.

3) تردي الأوضاع البشرية والاقتصادية (باستثناء الدول النفطية) التي يزيد في تفاقمها النمو السكاني الكبير، وبالتالي البطالة. ثمة تركيز رابع في البحث عن الأسباب، ألا وهو طبيعة التفكير أو التكوين الذهني التقليدي (والبعض يسميه المحافظ أو الرجعي أو العصبية) في المجتمعات العربية الذي يقف حاجزاً في وجه «النهضة» أو «التحرر» على غرار ما حدث في

الغرب ابتداء من القرن السادس عشر.

يوم كانت الشعوب العربية تقارع الاستعمار والإمبريالية، كان هناك نوع من الوضوح في الرؤية الوطنية، كان الخصم أو العدو معروفاً وواضح المعالم، كذلك الهدف من النضال السياسي.

وبعد نكبة فلسطين، توحدت كلمة العرب حول رفض هذا العدوان الجديد، وإن اختلفت النظرة إلى مقاومته والتغلب عليه؛ فريق رفع لواء الوحدة، وآخر لواء الثورة الاجتماعية، وثالث لواء الدين، ورابع لواء المقاومة المسلحة وال الحرب.

وفي هذا الوقت، كانت إسرائيل ترسخ أقدامها في فلسطين وتتوسع مستوطنة بعد مستوطنة في الضفة الغربية.

وإلى أن أهل هذا الربيع العربي الذي ارتفعت معه أو به راياتان جديتان لإخراج العرب من المأزق التاريخي الذي وقعوا فيه ونعني: راية الدين وراية الديمقراطية.

وإذا بصفحة جديدة من محنة الأمة العربية تفتح ألا وهي النزاع بين الإسلاميين – السلفيين، والليبراليين – الديمقراطيين. وهو نزاع قد يقود إلى ثورات أو انقلابات أو حروب أهلية، وتفكيك الأمة إلى مزيد من الدوليات العرقية أو المذهبية.

إن الفصل السوري من الربيع العربي هو الأسوأ والأخطر، لا بسبب تحول الانتفاضة الشعبية إلى حرب أهلية وإلى تدمير مدن وسقوط عشرات ألوف الضحايا وتشريد مئات الآلاف عن ديارهم، فحسب، بل لأن دولاً كبرى وإقليمية نافذة تدخلت في الصراع وباتت هي المتحكمـة في مخارجه..

وأخطر ما في هذا التدخل الخارجي هو إحجامه عن الحسم العسكري، الأمر الذي سيطيل الحرب الأهلية ويحولها إلى حرب مذهبية ويحمل شراراتها إلى الدول المجاورة.

وفي انتظار خطوة دولية حاسمة، أو اتفاق – صفقة بين موسكو وواشنطن أو بين واشنطن وطهران، أو تحول في سياسة إسرائيل وبالتالي في عملية السلام – لن يتوقف القتال في سوريا، ولن يزغ فجر الديمقراطية والحرية والرفاه والعدالة الاجتماعية في الدول التي مر عليها ما سمي الربيع العربي، بل سوف يتولد في العالمين العربي والإسلامي أنواع وأنواع من النزاعات، تفتت شعوبه وتهدى طاقاته، وتزيد من غضب ونقمـة الأجيال الطالعة فيه.

الشرق الأوسط

المصادر: